ميمية ألابي (دُفِنَ الكلام) في رثاء الشيخ يحيى مرتضى أغودي الإلوري في ميزان النقاد

[Mimetic of Alabi's entombment of words in the eulogy of sheikh Yahya Murtadho Agoudi Al-iloriy]

Abdulbaqy, Yahya Z Phd

Department of Languages, Faculty of arts, Al-Hikmah University, Ilorin, Nigeria.
yahbaqy@gmail.com

Ishaq Shuaib Phd

Department Of Arabic, University Of Ilorin, Ilorin-Nigeria.

Harun Abdulrahman

Department of Languages, Faculty of arts, Al-Hikmah University, Ilorin, Nigeria.
ayodeleharun@gmail.com

Article Progress:

Submission date: 01 June 2024

Accepted date: 20 June 2024

ABSTRACT

This paper discourses Eulogy Poetry as one of the common poetries in the history of Arabic Literature in West Africa, Nigeria in particular. The moorage between Arabic culture and Nigeria Arabic poets is Islam, this springhead has always been the helm of the ideologies and thoughts of African Arabic Literates. The paper identifies Alabi as one of the most accurate Nigerian Arabic poets in elegiac poetry in his commiseration of his mentor Sheikh Yahya Agodi. The research adopts historical and analytical methodology. The research findings include: Arabic elegiac poem in Nigeria is classical, secondly, Alabi's Elegiac work is in line with the rules and principle of elegiac art. The paper concludes by declaring Nigeria literary work in Arabic suitable for research.

Keywords: *Alabi, Entombment, Eulogy, Yahya, Word*

تقديم:

يبقى الرزء في الفن الأدبي قيما إنسانية خالدةء ما دامت الصحبة، والذكرى، والحنان، والرأفة، والأنس، قائمة على فطرة البشر على مرّ الأجيال، ذلك بأن سنة الندب والفقد لن تزل مع الفطرة إلى آخر الدهر. ومن ثم، والرثاء من أقدم الفنون الأدبية وإن لم يكن أقدمها، ولعله سيكون أخلد الفنون مع الدهر والعصور وإن لم يكن أبقاها.

وقد ضرب الشعراء –في كل عصر من العصور قيثارهم في هذا الفن الطريف، فحكم عليه البلاغيون والنقاد دراسة، وتحليلا، وتقويما، ووضعوا له معايير ومقاييس، وأسسوا نهجا سليما يسلكه المفقد في فقيده، والمرزء في رزئه.

وللشاعر النيجيري عيسى ألبي مسلك لطيف في بكاء مرثيه الشيخ يحيى مرتضى أغودي، والذي تودّ هذه المقالة لفت نظرة الدارسين إليه، إيمانا بأن الشعر العربي النيجيري قد بلغ ذروة الجد في الجودة والدقة، والمقالة تحتوي على: نبذة لحياة الشاعر، وعرض القصيدة، مميزات الرثاء في القصيدة، المؤخذات، الخاتمة، ثم المراجع والمصادر.

الشاعر عيسى ألبي حياته ونشأته:

هو عيسى ألبي بن أبي بكر، ولد بمدينة كماسي الغانوية لأبوين إلوريين عام 1953م، نشأ نشأة صبيان الإفريقية في زمانه في غانة على ثقافة إسلامية هادفة، فتعلّم القرآن الكريم والمبادئ الإسلامية على أيدي مشايخ إلورن، ثم أدخلته جدّته حليمة السعدية مركز التعليم العربي الإسلامي وفيه حصل الشهادتين الإعدادية، والتوجيهية،(1965-1971) وفيه نبغ في الشعر العربي نبوغا أعجب به مشايخه، وأساتذته.

وفي عام (1976-1979م) حصل على شهادة الدبلوم في اللغة العربية بجامعة بايرو بكنو، والماجستير في عام (1984-1985) في نفس التخصص والجامعة، وعلى الليسانس والدكتوراه في اللغة العربية من جامعة إلورن، ما بين (1982م) و(2000م) والدبلوم العالي في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها من جامعة الملك سعود بالرياض في (1990م).

عمل مدرّسا ردحا من الزمن في أحد فروع المركز الأم بإيجبو، فدار العلوم لجبهة العلماء والأئمة بمدينة إلورن، الذي ظلّ فيه مناظرا، وذلك ما بين 1984-1994م، ومحاضرا في قسم اللغة العربية بجامعة

عثمان بن فودي صكتو، قبل أن ساقه الحظ بالعودة إلى بلدته إلورن عام 1994م، منتقلا إلى جامعة إلورن حيث يعمل حاليا محاضرا للغة العربية وآدابها، ومديرا لمركز الانضمام الدراسي بين عام 2010-2014، وقد تم له قضاء سنة إجازة العمل بجامعة ليغون بدولة غانا محاضرا في اللغة العربية.(1)

كان فضيلة الدكتور عيسى ألبي زميل والدي في الدرب، فهو إذا أبي تبعا لعادتنا الإفريقية، ويتمثل في الصدارة من بين فحول الشعر العربي في نيجيريا، وكما يعدّ فارسا من فرسانه المتحكمين فيه. يمتاز شعره بكل ما يتصف به الشعر الجيّد، من حسن الديباجة، وكعب المعاني، وقوة التأثير، وروعة النظم، والوحدة الفنية والعضوية. وقد منحته هذه القدرة الشعرية بجائزة الفوز بالدرجة الأولى في المسابقة الشعرية التي نظمتها جامعة الملك سعود بالرياض في أحد تنشيطها الأسبوعي توعية على مضار التدخين عام 1991م، وله قصائد منشورة في مجلات علميّة محكمة في نيجيريا وبلاد العرب.

ويرى د.جمبا أنه" يحيي بشعره المناسبات الدينية، والإجتماعية، ويملأ الأمسيات الأدبية بالآلي والدرر من جود قرائحه، فلا غرو إذن أن أصبحت قصائده قيثاره الأدباء، ونأي عشاق العربية وطلابها في هذه الديار، يجد فيها كل ضالته المنشودة، وهذا الديوان وعاء لتجربة الشاعر وفلسفته ونظرته في الكون زهاء ثلاثة عقود من الزمن".(2)

وله دواوين شعرية محكمة، ومؤلفات منشورة وغير منشورة، منها: ديوان الرياض، والسباعيات، وصوت الخاطر، ومن مؤلفاته: "دراسات في شعر الجهاد لدى محمد بلّو" و"أساليب بلاغية لدى الشيخ عبد الله" و"أعمال العلامة الإلوري قراءة وتلخيص". وعن مقالاته في المجلات العلمية عن البحر حدّث فلا حرج.

نص قصيدة (دُفن الكلام):

ماذا يضيف إلى العقول كلامي؟ ** دفن الكلام فكسروا أقلامي
ماذا أطيق من البيان فقد هوى ** ركن البيان مزيّن الأعلام
تطوين قولا صادقا هو تارة ** حلو وطورا فيه وقع حسام
ماذا يروعك في احتواء أجلّة ** عاشوا كراما حلية الأقوام
لا شك أنك تدركين فضيلة ** فيهم وتحجبها يد الأيام
فضممت صدرهم إليك وحيدة ** إن القويّ يعاف كل زحام

عيد أعدت بكربة ومسرّة ** هذا صنيعك طيلة الأعرام
أنزعت منّا شيخنا وحكيمنا ** يحي لنحيا في لظى الآلام
أسكت صبّ الحق في الدنيا التي ** ملئت مجاملة بدون ذمام
أدم الذبائح ليس يمنع موتنا ** في العيد؟ هذا متعب الأحلام
لا تربطوا موت العظيم بسقمه ** قول هراء حيك بالأوهام
فالموت لا يأتي لسابق علّة ** إني أقر براءة الأسقام
والعمر آثار العباد وجهدهم ** لا كثرة الأعوام والأرقام
يحي ستحيا في القلوب بلا مرا ** تستنهض الشبّان في الأحلام
دفن الكلام وهل يموت كلامنا ** والله لم نسمع بموت كلام
أحببت آدم شيخنا بنزاهة ** فالحقْ به في الروح والإكرام
صغّرت دنيانا الحقيرة عالما ** أن الحكيم يقيسها بشمام
وأريتها شمم العفيف وزهده ** والغمر يعبدها بكلّ هيام
إنا فقدنا يوم موتك عالما ** جمّ الفصاحة ثابت الإسلام
وخلقت فينا ثلمة أيسدّها ** من ليس مثلك ثابت الأقدام؟ (3)

مناسبة القصيدة:

تمثل قصيدة (دُفن الكلام) صورة شفافة للعاطفة الإنسانية الحاسة، الصادرة من روح ألم الفقد، والشوق، والحنان، الذي ذاقه الإلوريون من جانب، وجنوب نيجيريا من جانب آخر ذكورا وإناثا، طلابا وأساتذة، حكومة ورعاة في فقد أحد عمالقه الشيخ مرتضى يحي أغودي الملقب بـ(الكلام)، وذلك في عام 1415هـ/1999م فانطلق الشاعر النيجيري الإلوري ألبي يصوّر هذا الموقف في أحسن تصوير بميميته التي تنضّد من عشرين بيتا في بحره البسيط المتصور لحسرة بالغة تكاد الدموع تخرج من الأبدان كلّه.

خصائص الرثاء النقدية في القصيدة

والرثاء كما حدّده الأدباء والنقاد هو أحد فنون الشعر العربي البارزة، ولعله أصدقها تجربة، وأعظمها حرارة التعبير ودقة التصوير.(4) ولا يخف ما لهذا الفن من نصيب الأسد في التراث العربي منذ الجاهلية إلى هذا العصر الراهن.

وتتبعا لهذا المفهوم الهادف المراثي عبر العصور المتعاقبة، فقد رتب النقاد مميزاته في ثلاثة عناصر وهي: الندب، والتأبين، والعزاء، وإن كانت هذه العناصر الثلاثة متداخلة بعضها في بعض لما يتجلى به الفن من الوجدان الصادق، وفي ذلك يقول أ.د. عبد الحليم: "فلا تفصلها حدود فاصلة، ولا يقوم منها لون دون الاستناد إلى الآخر والاتسام ببعض خصائصه، ولكن إذا غلب منها لون أعطى العمل الفني طابعه العام، ووسمه بميسمه الخاص"(5)

على الرغم مما تتأتى الشاعر من الأبعاد النفسية الخارجية في عمل أدبي واحد، لاسيما في الرثاء، والمدح، فإن ألبي وفى بعهده للقرّاء من جانب، وللدارسين والنقاد من جانب آخر، حيث استطاع أن يبرز تلك للرثاء أبعاده الثلاثة في ميميته التي أبدى فيها روعة رثائية فائقة.

- **ندب ألبي في القصيدة: يكاد** ألبي يجعل الأبيات كلها في بكاء فقيده، حيث لم يذر بيتا إلا وأمطر فيه الدموع الساخن، فلا لوم عليه في ذلك، ولا على من دونه، فإنه ما كان يبكي حاكما، ولا سلطانا، ولا بيتا، وإنما يبكي ثلمة من ثلم الإسلام في إمارة إلورن، فحق عليه أن يبكيه أكثر ما يتصوره أحد، واقتطافا من صورة بكائه هذا، يقول في مطلعها:

ماذا يضيف إلى العقول كلامي؟ **دفن الكلام فكسروا أقلامي

ماذا أطيق من البيان فقد هوى ** ركن البيان مزيّن الأعلام(6)

لقد امتلأ المرثي هذين البيتين بألفاظ رقيقة تبدي صورة حقيقية لما في نفس الشاعر من لطف، وحنتن، وشفقة، ومحبة، فالشاعر متصف بصفات الرحمة والرأفة، فلا تجمع هذه الصفات الرقيقة في شخصية إلا وكان لها تأثير كبير في بكاء فقيده، وهذا ما ظهر جليا في هذين البيتين، وهكذا تلقاه باكيا في سائر أبيات القصيدة، ومغزى آخر في هذا المطلع أنه يصوّر شدة حزن قائله حتى سقط منه الكلام والكتابة معا، وأغلظ الحادثة على المرأ ما يمنع صاحبه من البكاء، وقد يؤدي به

إلى الجنون وفقدان العقل، وفي ذلك يقول النقاد "وإن قصد استدعاء الجزع من ذلك سمي تفجيعاً"(7)

وفي موضع آخر من القصيدة يندب شيخه قائلا:

يا عيد عدت بكربة ومسرّة ** هذا صنيعك طيلة الأعرام

أ دم الذبائح ليس يمنع موتنا ** في العيد؟ هذا متعب الأحلام(8)

هذا هو البكاء؛ بكاء ساعة الاحتضار وبكاء الأهل والأقارب، وكل من ينزل منزلة النفس والأهل من الأحباء وأخوة الفكر والاتجاه والمشرب، بل يمتد إلى عتاب يسير للموتى في صنعه.

- **تأبين ألبي قي القصيدة:** لم يدع ألبي أن يمنعه ألم التأسي والفراق، والتعزية المرتجلة، والترحم المرسل ذكر خصال الفقيد الحميدة، وحسناته المحمودة، تجديدا لذكرياته في النفوس، ووفاء لحق الفقيد. وأنه مهما ازداد في بكائه وندبه فلم يبلغ ذلك قيمة الفقيد شيئا، واستمع إليه يردّد ذكراه في النفوس في قوله:

أنزعت منّا شيخنا وحكيمنا ** يحي لنحيا في لظى الآلام

أسكت صبّ الحق في الدنيا التي ** ملئت مجاملة بدون ذمام (9)

لقد ذكر لفقيده في البيتين ثلاثة خصال وهي: أنه الشيخ سنّا وعلما، ووصفه بالحكيم، في وعظه، ولسان الصدق، لما يملكه الفقيد من جرأة فذة أمام الحق..

وفي موضع آخر من القصيدة يثني عليه بالعلم والفصاحة والجدل والكلام، ومنزلته بين عشيرته أو قومه أو مجتمعه، وهذا من أجدر نقطة للتأبين في الرثاء، إذ يعدّ تعبيرا صادقا عن حزن قومه على الفقيد (10). وفي ذلك يقول:

يحي ستحيا في القلوب بلا مرا ** تستنهض الشبّان في الأحلام

دفن الكلام وهل يموت كلامنا ** والله لم نسمع بموت كلام

أحببت آدم شيخنا بنزاهة ** فالحق به في الروح والإكرام

صغّرت دنيانا الحقيرة عالما ** أن الحكيم يقيسها بشمام

وأريتها شمم العفيف وزهده ** والغمر يعبدها بكلّ هيام

إنا فقدنا يوم موتك عالما ** جمّ الفصاحة ثابت الإسلام (11)

- **عزاء ألبي في القصيدة** : ولما أدرك الشاعر ألبي أن هناك مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين في شعر الرثاء. وأنه نفاذ إلى ما وراء ظاهرة الموت وانتقال الراحل، وتأمل فكري في حقيقة الحياة والموت. تأمل ينطلق إلى آفاق فلسفية عميقة في معاني الوجود والعدم والخلود، أتى بهذا البيت تصويرا صادقا لعزائه في القصيدة:

يا عيد عدت بكربة ومسرّة ** هذا صنيعك طيلة الأعرام (12)

هذا، ولم يقف ألبي عند هذا البيت الوحيد في تصوير العزاء على مرثيه، فقد حدثت دهاءات وأوهام لا يكاد قلمه تصويره، وقد أشار إلى ذلك في مطلع القصيدة، ومن ذلك قوله:

أ دم الذبائح ليس يمنع موتنا ** في العيد؟ هذا متعب الأحلام(13)

لا تربطوا موت العظيم بسقمه ** قول هراء حيك بالأوهام

فالموت لا يأتي لسابق علّة ** إني أقر براءة الأسقام

والعمر آثار العباد وجهدهم ** لا كثرة الأعوام والأرقام

القيم الفنية للقصيدة:

- **التجربة الشعرية:** جرت هذه الميمية الألبية على تجربة شعرية في عناصرها الثلاثة؛ الذاتية، والعامة، والذاتية تحولت إلى العامة، لما تحمله من الوجدان، والعاطفة، والأفكار، والمعاني وغيرها، ويقصد بالوجدان والعاطفة ذلك الإحساس العميق والانفعال النفسي، والشعور الطبيعية التي تدفع بالشاعر إلى إفصاح ما في ضميره، وهذا ثابت في القصيدة، وقد أكّد هذا الزعم أن الشاعر تمكّن من تحقّق شرطا أساسيا في روح التجربة الشعرية ألا و هو "الصدق الفني الشعوري" كما أقرّه النقاد، وقد أشهد لنا انفعاله في حزنه: "أنزعت منّا شيخنا وحكيمنا" وألمه: "لنحيا في لظى الآلام" ويأسه:" دفن الكلام فكسروا أقلامي" وخسارته: "دفن الكلام وهل يموت كلامنا"، وأمله:"عاشوا كراما حلية الأقوام ".

- **الصور والأخيلة**: تشتمل هذه القصيدة على نماذج حية من الصور البيانية الرائعة من الألفاظ والعبارات والصور والموسيقى .

أألفاظ القصيدة: أما الألفاظ فهي مادة التعبير عن تلك التجربة الشعرية وهي الأداة السحرية في يد الشاعر بما يحمّلها خلال الصياغة من دلالات وإيحاءات، يقول أ.د. طاهر:(14) وليس هناك ألفاظ خاصة بالشعر فكل كلمة يمكن استخدامها بحيث تغني في موقعها ما لا تغني كلمة أخرى" وهذا ينقض ما كان عليه القدامى في اختيار الألفاظ، حيث يرون أن المعنى السليم يسوقه اللفظ السليم، وليس أن الأديب حرّ يختار من الألفاظ ما يناسب وما لايناسب، ولسنا مناصرين لرومنسيين في تفضيل الفكرة على الفن. ودع عنك هذه الاستطردات، ولتنظر ألفاظ أبي ألبي في هذه الميمية.

فأول ما يغررك من الصورة اللفظية في هذه القصيدة هو كلمة "الكلام" التي وردت خمس مرات، في قوله:(15)

ماذا يضيف إلى العقول كلامي؟ ** دفن الكلام فكسروا أقلامي

دفن الكلام وهل يموت كلامنا ** والله لم نسمع بموت كلام

فالمعجب به في تكرار (الكلام) بهذه المرات، مع وجود ألفاظ أخرى مرادفة لها. فالظاهر أن تكرار الكلمة في القصيدة ليست تمهّلا، ولا تكرارا مملاّ، لمكانة الشاعر في اللغة وتعمقه في الفصاحة والبلاغة، وإنما أتت مطابقة للحال والسياق، ألم تر أن الكلمة في كل موضع لها دلالة خاصة تميزها عن حالة أخرى؛ فقوله: "ماذا يضيف إلى العقول كلامي" فالكلام هنا أتى في سياقه الحقيقي يريد به كلام الفقيد الحقيقي الذي قد خفي منذ اللحظة التي فوجئ بموت شيخه، وفي قوله: "دفن الكلام فكسروا أقلامي" فالكلام هنا كناية عن شيخه الذي اشتهر بهذا اللقب لقوة جدله وشجاعته في الوعظ والإرشاد، وأما قوله: "دفن الكلام وهل يموت كلامنا" فلفظ الكلام في هذا الصدد كاية عن الحق الذ ينوب عته الفقيد، إذ لا يخشى في الحق شيئا، وكأن الشاعر يتسأأل إن كان الحق سيموت وينطفئ بموت هذا الشيخ، وأما قوله: "والله لم نسمع بموت كلام" فالكلام مطلق للحق كذلك، أي إن الحق لا يموت أبدا، إذا مات قائمه ولد آخر. ومن كان شاهدا يوم دفن الفقيد المرحوم علم يقينا لماذا وجدت هذه الكلمة هذا الحظ الكبير في

هذه القصيدة، فقد تبادلها جميع الحضور تأسيا بها، فيقولون في لفظ يوربا: (Oro lo- Oro lo) بمعنى (ذهب الكلام – ذهب الكلام)، والشاعر الحقيقي هو من تلتقي عاطفته مع بيئته.

بيان ألبي في القصيدة: والبيان أو الصور البيانية كما حدده الدارسون والنقاد في النص ذلك الوسيلة الأقوى في التعبير عن الفكر والشعور معاً تعبيراً مؤثراً ، فهو أشبه بثوب العروس الذي تتجمل به القصيدة. كما تتميز هذه القصيدة بسهولة اللفظ، والابتعاد عن التعقيد اللفظي، كذلك تتجلى بالقدرة البيانية الرائعة، وتجرده عن التعقيد المعنوي، وبما أن الموقف موقف البكاء، والتحيل، والدهاء، والحرج، فقد شاع في القصيدة التساؤلات العديدة التي خرجت كلها على سبيل التعجب والتحسر، مثل قوله: "أنزعت منّا شيخنا وحكيمنا" وقوله: "وخلقت فينا ثلمة أيسدّها من ليس مثلك" وقوله: "وهل يموت كلامنا" إلى جانب عديد من الاستفهامات التي تنبئ عن الحرج العظيم الذي وقع فيه الشاعر في هذا الفقيد.

مؤاخذات القصيدة

في الحقيقة كان الشاعر ألبي موافقا تماما في هذه القصيدة كلها من مطلعها إلى آخر البيت فيها، اللهم إلا أن القصيدة تفقد نماذجا حية من خصال الفقيد الجليلة، والتي يلزم الشاعر ذكرها مثل الجود، والكرم. وقد ذكر له فقط الشجاعة والفصاحة والكلام، ولعلّ الحالة النفسية التي وجد الشاعر نفسه فيها هي التي أنسته من ذكر تلك الخصال الحميدة، ويدلّ على ذلك ما صدر من الشاعر نفسه بعد ما قد سكن هيجان حزنه، فأصدر رثاء آخرا ذكر فيه جلّ ما فقده في الأول، وأتى بمطلعه في قوله: (16)

نحبك يا يحيى يصدقنا الذكر ** وذكر رجال أصلح أمرنا برّ

لخلاصة:

تلك هي الميميّة التي تصور بالإنصاف دموع أبي ألبي وأهل إلورن للشيخ يحي مرتضى المرحوم، فالقصيدة كما ترى أبرزت ديباجة هذا الشاعر الإفريقي، والذي لم يتسع الحال للباحث أن من ذاتيته إلا تلك الأسطر الطفيفة الواردة في المقالة، ومن يطلع على القصيدة يسلم مع الباحث فيما ذهب إليه في المقالة من تناولها على أسس ما يجوّد به النقاد الرثاء الجيّد، وكما لم يفت الباحث مهما ضاقت الحال أن يشير إلى نموذج من القيم الفنية التي تتميزّ بها القصيدة، وما

هذا ولا ذاك إلا فضل من ربي العظيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وصلى الله على النبي الكريم.

المراجع والمصادر:

Abdulbaqy, Shuaib, (2005) *Taqdeem Deewan Ar-Riyyadh,* Mat'ba'at Alabi, Ologun Jimba, Najeriyya.

Mahmud Mashood, (2005) *Asha'ir fil Sutur, Deewan Ar-Riyyadh,*Matba'atu Alabi.

Issah A Abubakar, (2005) *Deewanu Ar-Riyadh,* Matba'atu Alabi, Ologun Jimba, Ed.1, Pg 205

Abbas Ihsaan, (1983) *Tarikh An-Naqd al-Adaby inda Al-arab,* Darul al-thaqofah, Bayrut-Lubnan, Ed.4 Pg 102

Abdulhaleem M.H. (2014), *Nazariyaat fi Al-Dirasaat Al-adabiyyah lir-Ratha'i fi Al-Sh'ru Al-Arabi.* Pg 2

Tahir Hamid, (2014), *At-Tajribatu Al-Shi'riyyah,* pg 5